مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

مجال وادي نول في خريطة التجارة الصحراوية خلال العصر الوسيط ق ٥ - ٦ هـ/ ١١ - ١٢م

د. المحجوب قدار

دكتوراه في تاريخ الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي – المديرية الجهوية

مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

ارتبط ازدهار تجارة القوافل الصحراوية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط بالعديد من المراكز التجارية النشيطة، التي انتشرت على طول شبكة التجارة الصحراوية الرابطة بين طرفي الصحراء الكبرى، وبين هذه الأخيرة والمدن الساحلية المتوسطية ومنها نحو شمال المتوسط. وقد شكل مجال وادي نول إحدى تلك المراكز التي بصمت خلال الفترة الوسيطية على أدوار مهمة في التجارة الدولية في غرب المتوسط، فقد أهلها موقعها الوسطي بين عدة مراكز مهمة مثل سلجماسة وأوداغست لتصنف ضمن المراكز الحيوية في الحركة المرورية، لا سيما مع موقعها المتقدم في طرف الصحراء الشمالي قبل حاضرة سجلماسة. وإذا أضفنا إلى موقع نول الاستراتيجي خصوصيات موضعها المتميز سنكون أمام مجال مؤهل لاستقطاب عدة عناصر بشرية، وهكذا شهدت المنطقة بروز مدينة نول لمطة التي واكب نموها النمو التجاري والاقتصادي للغرب الإسلامي عمومًا خلال الفترة الوسيطية عمومًا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. وتروم هذه الدراسة تتبع إسهام مجال وادي نول في التجارة الدولية في غرب المتوسط خلال العصر الوسيط، من خلال إبراز مؤهلات الموقع والموضع التي تختص بها المنطقة، وبيان دورها في إشعاع هذا المجال خلال الفترة الوسيطية، ثم محاولة توضيح عوامل تراجعها. إذا كان العامل التجاري قد تحكم في نشأة مدينة نول لمطة في هذا الموقع خلال القرن الخامس أو السادس الهجري، فتدهورها وتراجع مكانتها من مسرح الخريطة التجارية مع نهاية القرن السادس الهجري يعزى إلى دواعي سياسية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٤ أبريل ٢٠٢١

تاريخ قبول النشر: ١٥ مايو ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

تاريخ الغرب الإسلامي؛ وادي نول؛ نول لمطة؛ التجارة الصحراوية؛ القوافل التجارية؛ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.245814

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

المحجوب قدار، "مجال وادي نول في خريطة التجارة الصحراوية خلال العصر الوسيط ق ٥ - ٦ هـ/ ١١ - ١٢م".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٢٥ – ٣٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elmahjoubkeddar@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

شهدت تجارة القوافل الصحراوية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ازدهارًا ملحوظًا، الشيء الذي جعلها محظ اهتمام الأسر المتطلعة إلى حكم المنطقة خلال تلك الفترة. وقد أسهمت تلك التجارة في تنشيط العديد من المراكز التجارية التي انتشرت على طول شبكة التجارة الصحراوية الرابطة بين طرفي الصحراء الكبرى، وبين هذه الأخيرة والمدن الساحلية المتوسطية ومنها نحو شمال المتوسط. ويشكل مجال وادي نول إحدى تلك المراكز التي بصمت خلال الفترة الوسيطية على أدوار مهمة في التجارة نحو السودان، فقد أهلها موقعها الوسطي بين عدة مراكز مهمة كسلجماسة وأوداغست لتصنف ضمن المراكز الحيوية في الحركة المرورية، لا سيما وأنها تحتل موقعا متقدما في طرف الصحراء الشمالي قبل حاضرة سجلماسة. وإذا أضفنا إلى موقع وادي نول الاستراتيجي خصوصيات موضعه المتميز سنكون أمام مجال مؤهل لاستقطاب عدة عناصر بشرية، وهكذا شهدت المنطقة بروز مدينة نول لمطة التي واكب نموها النمو التجاري والاقتصادي للمنطقة والغرب الإسلامي عمومًا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وإذا كانت الإشارات الواردة في المصادر حول مجال وادي نول قليلة بالمقارنة مع ما أوردته حول سجلماسة مثلا، فإنها مع ذلك وعلى قلتها تُبرز أهمية هذا المجال في السيرورة الاقتصادية للمغرب الأقصى وعموم الغرب الإسلامي، لا سيما وأن نول شكلت قاعدة سوس الكبرى. وتروم هذه الدراسة تتبع إسهام مجال وادي نول في التجارة الدولية في غرب المتوسط خلال العصر الوسيط، من خلال إبراز مؤهلات الموقع والموضع التي تختص بها المنطقة، وبيان دورها في إشعاع هذا المجال خلال الفترة الوسيطية، ثم محاولة توضيح عوامل تراجعها.

أولاً: وادي نول (المجال والأهمية التاريخية)

ارتبط انتقال الإنسان إلى طور الاستقرار بنقط تواجد المياه، كما هو الحال بالنسبة للحضارات القديمة مثل حضارتي بلاد الرافدين ومصر القديمة، لذلك ليس من المستغرب أن تعرف بعض المناطق بأسماء أودية معينة، وهذا حال منطقة وادي نول ووادي درعة وغيرها من الأودية. فدلالة الاسم في الحالات الأخيرة يتجاوز الوادي بشكله الطبغرافي إلى ما يرتبط به من استقرار بشري وما يرافقه من نظم اقتصادية واجتماعية. فما هو التحديد الجغرافي لوادي نول؟

يكتسي التحديد الجغرافي للمجال المدروس أهمية كبيرة في الدراسة التاريخية، لكن هذا المبحث غالبا ما يطرح صعوبات جمة للباحث في مواضيع العصر الوسيط، وتعزى تلك الصعوبات إلى ندرة الإشارات المصدرية الخاصة بالتحديد المجالي، وفي حالة إثباتها من قبل بعضهم فغالبا ما توقع الباحث في حيرة من أمره بفعل تضاربها، وطابعها الفضفاض أحيانًا، فضلاً عن مشكل الطبونيميا أو الأماكنية المرتبطة بالمجال، فكثيرا ما تتم الإشارة إلى نفس المجال بتسميات متعددة قد تكون متقاربة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى، مع قد يطرأ على أسماء الأماكن من تغيير من فترة إلى أخرى؛ ويرتبط جزء كبير من هذه الإشكالات بطبيعة التصنيف الجغرافي والتاريخي الذي يغلب عليه الطابع الاخباري.

تربط جل المصادر موقع مجال نول بجنوب المغرب الأقصى والصحراء[1]، لكن يبقى هذا التحديد غير دقيق، مما يجعل معرفتنا بحدود مجال نول وفق الإشارات المصدرية بعيد المنال، لا سيما مع التداخل الحاصل في تلك الإشارات، فتسمية نول لم تقتصر على اسم وادي[2]، بل أطلقها البعض على اسم مدينة[3]، بينما ربطها البعض الآخر باسم مجال أكبر[4]. ولعل هذا ما يدفعنا إلى ضرورة التمييز بين مدينة نول المركز الحضري الذي شهدته المنطقة وبين بلاد نول أول إقليم وادي نول[5]، الذي أخذ اسمه في الغالب من اسم المدينة، وذلك بناء على إشارة البكري الذي أشار إلى نول ونهرها[6]. الأكثر من ذلك أن إقليم نول يدخل بدوره ضمن تقسيم ترابي آخر، هو بلاد السوس الأقصى، حيث اعتبر ابن خلدون بلاد نول قاعدة بلاد السوس[7]، ويتقاطع معه ابن أبي زرع الذي أدخل بلاد نول ضمن إطار أوسع هو السوس الأقصى[8]، ويعتبر الإدريسي نول "مدينة كبيرة عامرة على نهر يأتي إليها من جهة المشرق وعليه قبائل لمتونة ولمطة"[9]، بينما نجده في المقابل يميز بين نول الغربية ونول الشرقية، ويجعل بين نول الغربية والبحر ثلاثة أيام[10].

ويستشف من نص ابن سعيد أن وادي نول قد حاز شهرة كبيرة وقتئذ في هذا المجال الواسع من الصحراء[11]، لكن يبدو أن ما أعطى للمنطقة شهرتها ليس الوادي لوحده بل حاضرة نول التي وصفها الادريسي بأنها مدينة كبيرة عامرة[12]، وإن كان المراكشي قد نقص من حجم المدينة، "ومدينة لمطة فلا يسافر إليهما إلا أهلهما خاصة[13]. وربما هذا ما جعل البعض يعتبرها "آخر مدن الإسلام من ناحية جنوب المغرب الأقصى، وأوّل العمران الصحراء[14].

وغني عن القول إن المنطقة قد لعبت أدورًا مهمة في تاريخ المغرب بدءا باحتضانها لتجمع قبلي مهم[١٥]، إذ يطالعنا الإدريسي- أن بلاد نول الأقصى- هي بلاد لمتونة الصحراء ولمطة[١٦]. وإنما سميت مدينة نول لمطة "لأن قبيلة لمطة يسكنونها وما وراءها وهي آخر بلاد السوس"[١٧]. أما ابن أبي زرع فيشير إلى أن قبائل صنهاجة تعمر هذا المجال الشاسع، وهي سبعين قبيلة تمتد بين "حوز بلادهم في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولا ومسيرة أربعة أشهر عرضا من نول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية"[١٨].

وارتباطا بالدور التاريخي لبلاد نول فقد سجلت هذه الأخيرة حضورها منذ ما قبل الميلاد، ففضلاً عن أدوارها التاريخية في الحقبة القديمة مع الفينيقيين والقرطاجيين، فقد دخلت المدينة ضمن نفوذ الأدارسة، كما شكلت جزءا من المجال الشاسع للدولتين المرابطية والموحدية[١٩]. وفي أواخر الدولة الموحدية خرجت المنطقة عن طوع الموحدين وآلت إلى علي بن يدر بالسوس الذي جاهر بالخلاف سنة ٦٥١ هـ، واستطاع أن يفرض سيطرته على بلاد السوس، وأطاعته قبائل كزولة وزكن ولخس من شعوب لمطة وصناكة، لكن بعدما تمكن المرينيون من حكم المغرب استطاعوا ضم المنطقة لحكمهم، فظلت المنطقة تحت الحكم المريني[٢٠].

من جهة أخرى ارتبط اسم بلاد نول في الاسطوغرافيا الوسيطية بالتحديد الجغرافي لنفوذ الدول الوسيطية، لا سيما وأنها تقع في أقصى الطرف الغربي لبلاد الإسلام المطل على البحر المحيط؛ وفي هذا الصدد يوظف ابن أبي زرع بلاد نول لتحديد نفوذ الدولة الموحدية والتي تمتد "من بلاد افريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى"[٢١]. وللتدليل على الأمن الذي ساد في عهد الخليفة الموحدي أبو يوسف تشير النصوص إلى أن "الظغينة تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل برقة وحدها لا ترى من يعارضها ولا يكلمها"[٢٢].

لكن وداي نول اليوم أصبح يعرف بوداي نون، والظاهر أن الاسم قد عرف تحريفا بسيطا في نطقه، فأضحت اللام تنطق نونا[٢٣]، ويتحدد موقع هذا المجال من منتهى أرض السوس عند قدم النهاية الجنوبية الغربية للأطلس الصغير، إلى الجنوب على هامش الصحراء الإفريقية الكبرى[٢٤].

ثانيًا: موقع مجال وادي نول في شبكة طرق القوافل التجارية

تجمع المصادر التاريخية والجغرافية على أهمية تجارة القوافل الصحراوية الرابطة بين طرفي الصحراء الكبرى في التاريخ العام للمنطقة عموما خلال العصر الوسيط، إذ لم تسهم تلك التجارة في تنشيط الحركة الاقتصادية في المنطقة فحسب بل كانت سببًا في نمو عدة مراكز حضرية على طول شبكة خطوط التجارة الصحراوية مثل سجلماسة ونول لمطة في الطرف الشمالي للصحراء، وحاضرة أوداغست في طرفها الجنوبي. ونظر لطبيعة الأرباح التي ارتبطت بهذه التجارة البعيدة المدى فقد كانت محط أطماع القوى السياسية، التي حاولت السيطرة عليها ثم تأمين طرقها.

في هذا الإطار استطاعت منطقة وادي نول أن تكتسب مكانة مهمة ضمن محاور تجارة القوافل الصحراوية، فموقعها العرضي على بوابة الصحراء الكبرى جعلها نقطة مرورية محورية، لكن الواقع أن أهميتها التجارية لم تبدأ مع الحقبة الوسيطية بل استطاعت المنطقة أن تجذب التجار الفينيقيين الذي ربطوا علاقات تجارية مع سكان المنطقة منذ القرن ١٢ ق. م وإلى حدود القرن ٦ ق.م، في إطار رحلاتهم التجارية في غرب المتوسط والتي قادتهم نحو السواحل الجنوبية للمغرب الأقصى-[٢٥]. واستمرت المنطقة بعد ذلك تستقبل كل من القرطاجيين والرومان[٢٦]، مما يفيد أن المنطقة قد راكمت خبرة تجارية مهمة عبر التعامل مع ثقافات متعددة بما فيها سكان إفريقيا جنوب الصحراء، في إطار تجارة الوساطة التي درت عليهم أموالاً كبيرة.

لكن يبدو أن منطقة وادي نول خلال الفترة الوسيطية لم تكن أقل حظا من الناحية التجارية مقارنة بالفترة القديمة، لا سيما مع ازدهار قوافل التجارة الصحراوية العابرة للصحراء الكبرى، مما أسهم في الزيادة من إشعاع المنطقة اقتصاديا وسياسيا. فمعظم أخبار المصادر حول المنطقة خلال الحقبة الوسيطية تؤكد على الأهمية التجارية لوادي نول. ويبدو أن المنطقة وبالنظر لموقعها الوسطي وموضعها الواحي قد كانت مؤهلة لاحتضان مركز حضري يستفيد من الحركة التجارية النشيطة مع بلاد السودان، وهكذا ظهرت إلى الساحة مدينة ناشئة هي مدينة نول لمطة، نسبة إلى قبائل لمطة التي كانت تعمر المنطقة. وبالرغم من أننا لا نعلم تاريخ نشأة هذه الحاضرة على وجه التدقيق إلا أن الواضح أن نشأتها كانت بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فصاحب كتاب البلدان الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي لم يشر- إلى أي مدينة بهذا الاسم في هذه المنطقة علما أنه قام بجرد مختلف المراكز المنتشرة في هذا المجال الصحراوي خاصة المؤدية إلى بلاد السودان، لكنه أشار في المقابل إلى قوم لمطة بين زويلة

ومدينة كوار[٢٧]، والأمر نفسه بالنسبة لابن حوقل الذي تحدث عن لمطة ولم يورد اسم نول سواء كوادي أو كبلاد أو مدينة[٢٨]، وكلاهما أي اليعقوبي وابن حوقل أكدا على اشتهار المنطقة بالدرق اللمطية[٢٩]. لكن اسم المدينة بدأ يتردد في المصادر مع حلول القرن الخامس الهجري الحادي عشر كمدينة مهمة[٣٠]. وبالمثل لا نجد ذكرا لوادي نول ضمن الاسطوغرافيا السابقة للقرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي مما يفيد بأن وادي نول قد أخذ اسمه من اسم المدينة الناشئة، لكونها قد أنشأت على ضفافه.

ولا شك أن ارتباط نشأة مدينة نول بهذه الفترة ليس أمرًا غريبًا، فمعظم مدن الغرب الإسلامي إنما نشأت خلال الفترة الوسيطية تبعا لدواعي سياسية أو تجارية أو مذهبية. ومن المؤكد أن تأسيس مدينة نول لمطة لم يخرج عن هذا الإطار، وإن كنا نرجح أن ازدهار الحركة التجارية الصحراوية قد كان عاملا محفزا لظهور المدينة في هذا التوقيت بالذات إلى جانب عوامل أخرى قبلية وسياسية.

إن الاطلاع على النصوص التي تتحدث عن دور المنطقة في تجارة القوافل الصحراوية خلال الفترة الوسيطية يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك محورية المنطقة ضمن شبكة طرق التجارة الصحراوية، إذ يستشف من نص اليعقوبي أن المجموعة القبلية لمطة كانت تضطلع بدور مهم في هذه التجارة، ففضلا عن كونها منطقة مرورية تتوسط زويلة ومدينة كورا فإنها اشتهرت في الدرق اللمطية البيض التي شكلت بدورها إحدى السلع الرائجة في تلك التجارة[٣١]. وفي سياق حديثه عن المراكز الصحراوية وشبكة طرق القوافل يطالعنا ابن حوقل عن أهمية موقع لمطة وأهميتها المحورية في طريق سجلماسة شمالاً وأداغست جنوبًا[٣٢].

وبظهور مدينة نول لمطة أضحت للمنطقة إشعاع أكبر، ظهر من خلال تعدد نقط الاتصال بالمدينة شمالاً وجنوبًا، إذ يبدو أن المنطقة قد شهدت نشأة عدة مراكز أخرى[٣٣]، لكن الظاهر أن مدينة نول لمطة برزت كقاعدة أساسية في التجارة الصحراوية، وهذا ما يظهر على الأقل في حديث المصادر عن المسافات بين المراكز التجارية، فوفقا للبكري فنول تبعد عن درعة بثلاث مراحل[٣٤و٣٥]، بينما تبعد عن سجلماسة بحوالي ثلاثة عشر مرحلة[٣٦]، ومن "وادي السوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل في عمارة جزولة ولمطة"[٣٧]، أما تينزرت فتقع إلى الشرق من نول[٣٨].

كما أن موقعها كأهم مدينة على بوابة الصحراء الكبرى أعطى لها أهمية خاصة عبر اتخاذها كمركز للتزود بأهم الحاجيات من أجل الرحلة في الصحراء، إذ وصفها بعضهم بأنها "آخر بلد الإسلام وأوّل العمران من الصحراء"[٣٩]، كما أن المراكب تنتهي إلى وراء ساحل نول ولا تجاوزه"[٤٠]. وبالإضافة إلى أهمية موقعها في تجارة القوافل استطاعت المنطقة أن تنشط على مستوى التجارة البحرية، إذ يشرف مجالها على ساحل البحر المحيط، مما أهلها لربط علاقات تجارية بحرية مع بلاد السوس التي تفصلها عنها مسافة ثلاثة أيام بحرا[٤١].

وإلى جانب حاضرة نول لمطة ظهرت مدينة أخرى لقبيلة لمطة هي أزقى أو أزكى[٤٢]، واعتبرها الحميري أولى مراقي الصحراء، وتبعد عن نول بسبع مراحل، وهي ليست بالكبيرة ولكنها متحضرة، كما أنها اكتست قيمة تجارية مهمة، إذ "لا بد من الدخول على هذه المدينة لمن أراد تكرور وغانة من بلاد السودان"[٤٣]، إلى جانب مدينة تِينزَرْتُ التي تقع إلى الشرق من نول، وتشكل بدورها مركزًا لتجمع التجار لمعاملة البربر[٤٤].

ثالثًا: مؤهلات مجال وادي نول وإسهامها في التجارة الصحراوية

لم تكتسب منطقة وادي نول أهميتها انطلاقًا من موقعها الاستراتيجي في طريق القوافل التجارية الصحراوية فحسب، بل إن عوامل متعددة قد أسهمت في تنشيط المنطقة برمتها خلال الفترة الوسيطية، صحيح أن ازدهار تجارة السودان خلال هذه الفترة قد أفرز ولادة مجموعة من المراكز الحضرية مثل نول لمطة، وسرع من إشعاع المنطقة في الجنوب المغربي، لكن لا ننسى أن علاقة المنطقة مع التجارة تسبق هذه المرحلة بقرون عديدة، مما يعني أن هذا المجال الصحراوي قد وفر مقومات أخرى أهلته للتعاملات التي اقتضتها عملية التبادل التجاري، فأين تتجلى مؤهلات المنطقة الفلاحية والحرفية.

يتأسس قيام أي النشاط التجاري على الإنتاج الفلاحي والحرفي وسائر الموارد الطبيعية، وبتأمل مجال وادي نول سنجد أن أهم نشاط اعتاد عليه سكان المنطقة هو رعي الماشية والانتجاع، كما اشتهرت المنطقة بأنشطتها الزراعية التي مارستها على ضفاف وادي نول الذي وصفه أحد الجغرافيين بأنه "نهر كبير يصب في البحر المحيط وعليه قبائل لمطة ولمتونة"[٤٥]. لكن مع ذلك يبقى أبرز نشاط مارسه السكان هو تربية الماشية، وفي هذا الصدد تطالعنا المصادر بكثرة مواشيهم وتنوعها ومنها حيوان اللمط والأبقار والأغنام زيادة على الإبل والفنك، والأكباش الدمانية "وهي على خلقة الضأن

إلا أنها أعظم وشعرها كشعر المعز لا صوف عليها، وهي من أحسن الغنم خلقاً وألواناً"[٤٦].

أسهمت الحرف والصنائع التي مارسها سكان المنطقة بدورها في تنشيط التجارة المحلية والخارجية، وتعكس طبيعة الصنائع السائدة في وادي نول نمط الحياة السائدة والمعتمد بالأساس على الموارد المحلية، وقد استطاعت ساكنة هذه المناطق أن تطور حرفا متنوعة استفادت من الموارد المحلية وما تخلفه المواشي من جلود وصوف. غير أن أكثر ما اشتهرت به ساكنة وادي نول هو صناعة الدرق اللمطية، وقد أشار اليعقوبي إلى وجود هذه الصناعة بها قبل نشأة مدينة نول لمطة؛ ويستمد اسمها من حيوان اللمط، وهو عبارة عن "دابة دون البقر لها قرون رقاق حادة تكون لذكرانها وإناثها، وكلما كبر هذا الحيوان طال قرنه حتى يكون أزيد من أربعة أشبار، وأجود الدرق وأغلاها ثمناً ما عمل من جلود الإناث المسنات التي قد طالت قرونها لكبر سنها حتى منعت الفحل أن يعلوها"[٤٧]. وقد وصفت الدرق اللمطية التي تصنع من جلود بأنها "لا شيء أبدع منها ولا أصلب ظهراً، ولا أحسن منها صنعًا، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها"[٤٨]. كما عرفت المدينة أيضا بصناعة السروج واللجم وأقتاب الإبل[٤٩]. ويستشف من إحدى النصوص أن المنطقة كانت تصنع إلى جانب ذلك الأكسية السفسارية والبرانس التي يباع الواحد منها بخمسين دينارا[٥٠]. ولا شك أن الغنى الحرفي المميز للمنطقة هو ما جعل أحد الباحثين يصنف نول لمطة كإحدى الحواضر الصناعية في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي[٥١]، فإشعاعها بلغ الآفاق كما أثبتت سلعها موقعها في السوق خاصة مع كثرة الطلب على الدروع اللمطية في مختلف أنحاء المغرب بشهادة الرحالة والجغرافيين[٥٢].

وقد أهل غنى المنطقة بثرواتها الحيوانية والزراعية ومنتوجاتها الصناعية لممارسة الاستقطاب على المناطق المجاورة، كما مثلت في الوقت ذاته محجا لها من أجل التسوق، و"إليها يلجأ أهل تلك الجهات في مهم حوائجهم"[٥٣]، مما يرجح أن المنطقة كانت نقطة ارتكاز لسكان المنطقة، حيث يتجمعون في مدينة نول لمطة مرة في السنة أو بضع مرات للتسوق في إطار مواسم، فيختلط التجاري بالقبلي والسياسي والمذهبي. كما عرف هذا المجال الصحراوي بكثرة الأسواق[٥٤]، وأخذ بعضها شكل مواسم مثل موسم ماست "وماست الّتي أضيف إليها الوادي رباط مقصود عندهم له موسم عظيم ومجمع جليل وهو مأوى للصالحين"[٥٥].

ومن الطبيعي أن يتأثر الوضع المادي للسكان خاصة بوادي نول بفعل ازدهار الحركة التجارية والحرفية، فجمعهم بين الصنائع والتجارة إلى جانب الانتجاع در على المنطقة أموالاً مهمة عادت عليهم بالرخاء، وهو ما تعكسه إحدى النصوص التي تفيد بإقبال الساكنة على الكماليات مثل العطور، وفي هذا السياق يذكر الحميري أن "الريحان في بلاد الصحراء وفي بلاد السوس عزيز لأن بلادهم لا تنبته، وهو عندهم من أطيب الطيب"[٥٦].

خَاتِمَةٌ

إذا كان العامل التجاري قد تحكم في نشأة مدينة نول لمطة في هذا الموقع خلال القرن الخامس أو السادس الهجري، فتدهورها وتراجع مكانتها من مسرح الخريطة التجارية مع نهاية القرن السادس الهجري يعزى إلى دواعي سياسية، فخروج المنطقة عن طوع الموحدين في أواخر عهدهم وبروزها كإمارة مستقلة بقيادة بني يدر جعلها في مرمى القوى السياسية التي تنافست على حكم المغرب، وفي مقدمتهم القادم الجديد وهم المرينيون الذين لم يألوا جهدا في سبيل السيطرة على المنطقة برمتها، بحكم حيوتها في استمرار تدفق القوافل الصحراوية وتأمين استمرارية موارد بيت مال الدولة[٥٧]. وهو ما جعل المدينة قبلة لغارات المرينين ومسرحًا لعدة حروب، وهو ما عجل في الغالب باختفاء أهميتها التجارية لصالح مراكز أخرى، وحسبنا أن ابن خلدون لم يسم نول بالمدينة، بل اكتفى بذكر مجال وادي نول عند حديثه عن المنطقة، مما قد يحيل على اختفاء المدينة وتلاشي دورها التجاري، في المقابل نجده يتحدث عن مراكز جديدة ضمن الخريطة التجارية للمجال الصحراوي وهم بلدتا تاكاوست وايفري، وكلاهما على وادي نول، وبينهما مرحلتان، ويبدو أنهما عوضتا نول في عملية تأمين حاجيات القوافل والسلع المحلية من درق لمطية وغيرها، إذ أضحت "كاوصت محطّ الرفاق والبضائع بالقبلة، وبها سوق في يوم واحد يقصده التجار من الآفاق، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان"[٥٨].

ويحتمل أن يكون تراجع المدينة قد بدأ منذ وصول القبائل العربية إلى المنطقة مع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، فبوصول المعقل وتغلبهم على بسائط أرض السوس بما فيها مجالات نزول لمطة اقتسموا المنطقة فيما بينهم، "فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن، وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصارت كزولة من أحلاف ذوي حسّان، والأمر على ذلك لهذا العهد"[٥٩]. ولا نستبعد أن تكون هذه الأحلاف الجديدة التي

شهدتها المنطقة سببًا في تخريب مركز نول لمطة، مما جعل إشعاع المنطقة ينسحب إلى مراكز أخرى ناشئة.

الاحالات المرجعية:

(١) البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ)، **المسالك والممالك**، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢ م، ج. ١، ص ٢٢١. ج ٢، ص ٧٦٢. ابن شمائل القطيعي البغدادي (ت. ٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطبعة. ١، ١٤١٢ هـ، ج. ٣، ص ٣٩٦.
(٢) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣. ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري والنشر والتوزيع، بيروت، ط. ١، ١٩٧٠، ص ١٢٣.
(٣) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٤) ابن خلدون أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، الحضرمي الإشبيلي (ت. ٨٠٨هـ)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط. ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ج. ٧، ص ٧٧.
(٥) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٧، ص ٧٧.
(٦) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٧) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٧، ص ٧٧.
(٨) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة** فاس، دار المنصور للطباعة والنشر الرباط، ١٩٧٢، ص ٢١٧.
(٩) الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي (ت. ٥٦٠هـ)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، ط. ١، ١٤٠٩ هـ، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤.
(١٠) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(١١) ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، ص ٢٦.
(١٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(١٣) المراكشي عبد الواحد بن علي التميمي محيي الدين (ت. ٦٤٧هـ)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت ط. ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦، ص ٢٥٨- ٢٥٩.
(١٤) البكري، **المسالك**، ج ٢، ص ٧٦٢. ج. ٢، ص ٨٥٣.
(١٥) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٧، ص ٧٧.
(١٦) الحِميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت. ٩٠٠هـ)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، مطابع دار السراج، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٠ م، ص٥٨٤. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(١٧) مجهول (ت. ق ٦هـ)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٢١٣. ابن شمائل، مراصد الاطلاع، ج. ٣، ٣٩٦.
(١٨) ابن أبي زرع، **الأنيس**، ص ١٢٠.
(١٩) المصدر نفسه، ص ١٩٩. ٢٣٠.
(٢٠) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٦، ص ٣٦٧- ٣٧٠.
(٢١) ابن أبي زرع، **الأنيس**، ص ١٩٩. ٢٣٠.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٢٣) محمد الصافي، **جوانب من التاريخ الاقتصادي للجنوب المغربي مدينة نول لمطة نموذجا**، دورية كان التاريخية، العدد ٢٨، السنة الثامنة، يونيو ٢٠٢٥، ص ١٩.
(٢٤) ابن أبي زرع، **الأنيس**، هامش الصفة ٢١٧. الحسن المحداد، **معلمة المغرب**، مادة نون، ص ٧٤٨١
(٢٥) ناعمي مصطفى، **الصحراء من خلال بلاد تكنة**، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨، ص ٢٢.
(٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٣- ٢٤.
(٢٧) اليعقوبي أحمد بن إسحاق (ت. بعد ٢٩٢هـ)، **البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ١٤٢٢ هـ، ج. ١، ص ١٨٣.
(٢٨) ابن حوقل محمد البغدادي الموصلي (ت. بعد ٣٦٧هـ)، **صورة الأرض**، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨ م، ج. ١، ص ٨٤- ٩١.
(٢٩) اليعقوبي، **البلدان**، ج. ١، ص ١٨٣. ابن حوقل، **صورة الأرض**، ج. ١، ص٨٤ - ٩١.
(٣٠) البكري، **المسالك**، ج. ١، ص ٢٢١. الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤.
(٣١) اليعقوبي، **البلدان**، ج. ١، ص ١٨٣.
(٣٢) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ج. ١، ص ١٥٧.
(٣٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤.
(٣٤) البكري، **المسالك**، ج. ١، ص ٢٢١.
(٣٥) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص ٢١٣.
(٣٦) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(٣٧) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣. الحِميري، **الروض المعطار**، ٥٨٤
(٣٨) ابن شمائل، **مراصد الاطلاع**، ج ١، ص ٢٢٨.
(٣٩) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٧٦٢.
(٤٠) ابن خلدون، **العبر**، ج. ٦، ص ١٢٩.
(٤١) المصدر نفسه، ج. ٢، ص ٧٦٢.
(٤٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ص ٢٨.
(٤٣) الحميري، **الروض**، ص ٢٨.
(٤٤) الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت. ٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٥ م، ج. ٢، ص ٦٩.
(٤٥) الحميري، **الروض**، ٥٨٤.
(٤٦) المصدر نفسه، ٥٨٤.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٥٨٤.
(٤٨) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ٥٨٤..
(٤٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ٥٨٤
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥٨٤.
(٥١) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج. ١، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص ٢٢٠.
(٥٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ص ٥٨٤.
(٥٣) الحميري، **الروض**، ص ٥٨٤.
(٥٤) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٥٥) المصدر نفسه، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٥٦) الحميري، **الروض**، ص ٥٨٤.
(٥٧) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٦، ص ٣٦٧- ٣٧٠.
(٥٨) المصدر نفسه، ج. ٦، ص ٣٦٩- ٣٧٠.
(٥٩) المصدر نفسه، ج. ٦، ص ٣٦٩- ٣٧٠.